# بين السليقة والخطاب الشعري

أ.عائشة عبدالله بحرون ـ كلية التربية الزاوية ـ جامعة الزاوية

## مقدمة :

كثيراً ما يتداول مصطلح "السليقة على ألسنة الدارسين للغة العربية، فيقال: إنه يتكلم اللغة العربية عن سليقة.

ويرادف مصطلح السليقة هنا الفصاحة، أو عدم التكلف في صناعة الكلام الفصيح، أو بمعنى أنه يصنع المتكلم الجمل صناعة عجيبة.

فهل هذا هو المعنى الذي تحمله المعاجم في مفرادتها واصطلاحاتها؟ وهل هو المعنى نفسه الذي يُقرّه العلماء القدامى والمحدثون لمصطلح السليقة؟

**أولاً- مفهوم السليقة عند العلماء:**

**أ- السليقة في اللغة:**

"السليقة على وزن فعيلة" في اللغة العربية ومما ورد على صيغتها الصرفية: "قولهم: الطبيعة، وهي من طبعت الشيء، أي قررته على أمر ثبت عليه، كما يُطبع الشيء كالدرهم والدينار، فتلزمه أشكاله، فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله"[i].

وجاء في كتاب "النهاية في غريب الأثر" أن أبا الأسود وضع النحو حين اضطرب كلام العرب وغلبت السليقة"[ii]، أي: اللغة التي سيترسل المتكلم بها على سليقته ، أي: سجيته وطبيعته من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن ومنه قول الشاعر:[iii]

ولَسْتُ بنحْويّ يَلُوْكُ لِسَانُهُ ولَكِنْ سَليقيٌّ أقُولُ فاعْرِبُ

أي أجرى على طبيعتي ولا ألحن

من خلال تأمل القارئ في المعاني المتنوعة السابقة لكلمة "السليقة" المبثوثة في المعاجم اللغوية يمكن حصرها في الدلالات الآتية، وهي الطبيعة، والخليقة والسَّجية.

حيث جمعت هذه الدلالات الثلاث في قول ابن منظور وهو: "الخليقة: الطبيعة التي يُخلق بها الإنسان والخِلْقة: الفِطرة... والطبيعة والخليقة والسليقة بمعنى واحد"[iv].

ويقول ابن جني أيضاً: "فلان يقرأ بالسليقة أي: بالطبيعة"[v].

**السليقة في الاصطلاح:**

ليس بعيداً أن يكون مفهوم السليقة عند بعض العلماء المسلمين قديماً مبنياً على ثقافتهم الدينية التي يدافع عنها بعضهم، اعتماداً منهم على نصوص نقلية ثبتت في المصادر الإسلامية مفادها أن اللغة توفيق من الله، ولذلك قالوا: "الخليقة: الطبيعة التي يُخلق بها الإنسان، والخِلْقةُ: الفِطرة... والطبيعة والخليقة والسليقة بمعنى واحد[vi].

وإذا كانت اللغة توقيفاً – كما يراه الكثير من العلماء – فذلك يعني أنّ "السليقة" بمعانيها المبثوثة في المعاجم اللغوية القديمة والتي منها: الطبيعة والخليقة والسجية هي نشاط لغوي مفروض على الفرد بالوراثة ، أو هي عملية تواصلية بين الإنسان، من خلق الله، ليس للبشر فيها إضافة أو صناعة أو بمعنى آخر فاللغة في مفهوم هذا التيار سلوك بشري جامد، لا يتطور بتطور الحياة، وليس للفرد اختيار اختيار في تغييره وتهذيبه[vii].

وقد يستقيم الحديث عن السليقة واللهجات إذا قوبلت اللغة الرسمية في قطر ما بتعدد اللهجات في هذه اللغة الرسمية، وهذا ما ينطبق على "السليقة" التي يتحدث عنها العرب في كتب التراجم، فهي عندهم تلك اللغة التي يتداولها أبناء القبيلة الواحدة لتكون أداة للتواصل بينهم.

ومن ثمَّ فالسليقة هي التواصل بين أفراد القبيلة بإحدى اللهجات العربية الفصحى من بيئة محدودة ومن غير تعلُّم ولا دُرْبة.

أي أن السليقة هي عملية تواصلية من غير شعور أو إدراك لقواعد اللغة المستعملة.

وإذا كانت اللغة العربية هي مجموعة من اللهجات فإن السليقة اللغوية كانت – أيضاً- مجموعة من السلائق، فلم تكن اللغة العربية الفصحى السليقة الوحيدة لكل العرب التي نزل بها القرآن وقعّد لها النحاة وهو ما يبعدنا عن الشكِّ في "أنَّ قبائل البادية جميعها كانت تتعامل بلهجة واحدة، أو تتكلم الفصحى الموحدة في حياتنا اليومية[viii].

اللغة بين ضعف السليقة وتأثرها بالثقافات الأخرى:

**كيف كانت اللغة وكيف تأثرت السليقة بمجيء الإسلام؟**

كانت العربية في العصر الجاهلي نقية صافية بفضل الطبيعة الجغرافية لأرض العرب، فالبحر يحيط بجزيرتهم من ثلاث جهات، فيجزهم عن الأمم المجاورة وتحد حياتهم القبلية وطبائعهم الاجتماعية من انسياحهم في الأرض باتجاه الشمال،

وظلت العربية شطراً من صدر الإسلام نقيّة من الشوائب تنساب على ألسنة أبنائها بيسر وسهولة في أصواتها وأبنيتها وتراكيبها دون الحاجة إلى تأمل أو إعمال فكر، مهم يفهمون دلالتها بالفطرة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، ولم تكن ثمة حاجة لما يعضُد السليقة ويقوِّيها من ضوابط اللغة وقوانين الإعراب.

فقد كانت السليقة اللغوية هي المهيمنة وهي الحامية من الخطأ، ثم جدت أمور وتبدَّلت أحوال، فتكدر صفو اللغة، وضعفت السلائق واضطربت الألسن ، فنشأت الحاجة إلى استخراج القواعد ووضع الضوابط التي تعصم من الزلل وتقوم مقام السليقة.

يقول أبوبكر الزُّبيدي في طبقات النحويين واللغويين (ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر الإسلام، فدخل الناس فيه أفواجاً وأقبلوا إليه أرسالاً، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة فغشا الفساد في اللغة العربية)، وكان ظهور ذلك على وجه التحديد أيام الخلافة الراشدة في المدينة المنورة ثم تفاقم الأمر وازدادت الحاجة – فيما بعد- فتهيأت العوامل لنشأة الدرس اللغوي ابتداء في المدينة بسبب ظهور اللحن، وتهديده لغة الدين الإسلامي[ix].

**مفهوم الخطاب والخطاب الشعري:**

اهتمت الدراسات الأدبية بمذاهبها وتياراتها المختلفة بالخطاب الأدبي، وعناصره المكونة له، والتميز بين مختلف أنواع الخطاب، وقد أدى ذلك إلى تشكيل ركام من المقولات التي تتناول الخطاب، ولقد حاولت أن تكون مقاربتي لمفهوم الخطاب مقاربة دالة على مضمون البحث للبقاء في دائرة المنهج المتبع؛ لأن قضية الخطاب قضية متشعبة قد يطول الكلام فيها.

**الخطاب لغة:**

يتضمن الخطاب في أهم معانيه "المحاورة" إذ جاء في لسان العرب: الخطاب والمخاطبة؛ مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان، أما في المعاجم الفرنسية فإن كلمة Dissours ذات الأصل اللاتيني Discursas المأخوذ بدوره من الفعل Discurrere الذي "الجري هنا وهناك أو "الجري ذهاباً وإياباً" فهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال"[x] وتشترك اللغة العربية والأجنبية في تضمن مفهوم الخطاب بالتلفظ والقول بين طرفين أحدهما مخاطب والآخر مخاطب.

**الخطاب اصطلاحاً:**

الخطاب على المستوى البسيط "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً"[xi].

فهذا التعريف يركز على الجانب الكمي المادي للخطاب، أما الخطاب في عرف الأسلوبية فهو "سيرورة متجلية كأثر لتكوين المعنى في سياق مجموعة أفعال تواصلية تقوم في تكوينها على مستويين.

- مستوى البنية السطحية.
- مستوى البنية العميقة.

فالخطاب يتضمن عدة مفاهيم فرعية يقوم عليها بناؤه فهو سيرورة وهذا يحيلنا إلى مفهومي التطور والآنية السويسريين، ومفاهيم المعنى والتواصل.

مفهوم الخطاب الشعري في الثقافة الغربية والعربية:

يعد مفهوم الخطاب الأدبي من المفاهيم التي أثارت الجدل في الساحة النقدية شأنه شأن البنية، فجل الدراسات والأبحاث، وبمختلف اتجاهاتها اللسانية والبنيوية والسيميائية والأسلوبية، وغيرها أولت اهتماماً كبيراً للخطاب الأدبي وهو ما سنلاحظهُ من خلال المقاربات التالية:

**أ- في التصور الغربي:**

يعد مفهوم الخطاب من المفاهيم المتشعبة التي قد يطول فيها الكلام، ويؤكد ذلك العديد من النقاذ منهم سعيد يقطين، ويُعرّف هاريس الخطاب بأنه "ملفوظ طويل أو هو متتالية من الجمل تتكون من مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[xii].

تكمن بنية الخطاب من منظور هاريس في أنه يحصر به في الجملة، وكما أضفى عليه سمة الانغلاق التي تدور فيها متتالية الجمل.

ويعرف باكبسون الخطاب بأنه "نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام"[xiii]، فالخطاب بهذا المفهوم هو ارتقاء للكلام وتميزه بفضل الوظيفة الشعرية.

**ب- في التصور العربي:**

أولى النقاد العرب اهتماماً كبيراً للخطاب الأدبي فهو من المقاربات التي شغلت الساحة النقدية العربية وذلك بفضل الإسهامات البارزة في هذا المجال، فقد لمع كثير من الأدباء في تناول موضوع الخطاب من بينهم نور الدين السد، وملخص

تعريفه أن الخطاب مجموعةمن الإشـــارات التي تدل على الوقائع الخارجية بشـــكل منظم، وجوهره هو الانعكاس الذي يحدثه هذا الإدلال في الأثر الأدبي، وهو يهدف إلى التأثير ، فسمات الخطاب الأدبي من هذا المنظور هي التأثيرية والانفعالية بهدف إنتاج المعنى.

أمـا عبـدالله الغـذامي فيرى أن الخطـاب "هو مـا يختـاره المتحـدث من ذلـك المخزون ليعبّر به عن فكرته أو رسالته"[xiv].

وبهذا يكون الخطـاب مرتبطـاً بـالمخزون الفردي والمتكلم هو الذي يختـار من ذلك المخزون بهدف توصيل الرسالة.

مـا يلاحظ من هذه المقاربات هو اختلاف أنواع الخطابات، وما يهمنا الخطاب الأدبي الذي بدوره إلى شـعري ونثري، أما الخطاب الشـعري فهو "كل إبداع أدبي بلغ الحد المقبول، ونـال إعجـاب أكثر من نـاقد، أي كل إبداع أدبي قـال الحد الأدني من إجماع الناس على جودته فيصنف في الخالدات من الآثار الفكرية"[xv].

فالخطاب الشـعري هو الخطاب الذي تغلبت فيه الوظيفة الشـعرية، فهي تحتل الصـــدارة مقارنـة مع باقي الوظائق، كما أنه يتميز من خلال مكوناته التي ينفرد بها، والتي تمنحه جمالية خاصة؛ لأن "الشعر قوة ثانية للغة، وطاقة سحر وافتنان"[xvi].

**أثر السليقة في الخطاب الشعري:**

يختلف الخطـاب الأدبي عن بـاقي أنواع التعبير، لمـا لهـذا الخطـاب من خصـوصـيته، لا سيما وإن كان هذا الخطاب شـعراً تتجاوز لغته المألوفة، وتعتمد على التلميح والبعد في الإشـارة، وألفاظه مثبوتة حرة لا يكاد يمسـك بدلالتها إلا القليل، وما يطبع اللغة الشـعرية كذلك الإيجاز وعدم الخوض في التفاصـيل كما تخوض لغة النثر أو اللغة العادية.

فالشعر بهذا المصاف يُعد ثورة مستمرة على حواجز اللغة[xvii].

**تأثير ألفاظ الشعراء بالسليقة في الخطاب الشعري:**

شـواهد من الألفاظ في الشـعر يتمثل فيها ما أخذه عبدالله بن أبي إسـحاق على الفرزدق، في مدح يزيد بن عبدالملك.

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا تلقى وأرحلنا على زواحف تُزجي مخها رير

فقال ابن أبي إسـحاق، أسـأت إنما هي (ريرُ) بالرفع، فلما ألحُّوا على الفرزدق أصلحها، وقال في عجز البيت (على زواحِفِ تُزْجِيها مَحَاسِيرِ).

وكذلك قيل: سمع ابن أبي إسحاق الفرزدق ينشدُ:

وعضُّ زمَانٍ يا ابن مَرْوانَ لم يَدَعْ من الناس إلاَّ مُسْحَتا أوْ مُجَلَّفُ

فقال ابن أبي إسحاق: على أي شيء ترفع (مُجلَّفُ)؛ فقال: على ما يسوؤك وينوؤك، علينا أنْ نقول، وعليكم أن تعربوا[xviii].

وصار النحاة ينتقدون الشعراء وقد كثرت انتقاداتهم مما كان يغضب الشعراء وصاروا يثأرون لأنفسهم بشعرهم وعن سليقتهم، ويوجهون إلى النحو والنحاة أقسى النعوت وأعظم السخريات.

ومن السخرية بالنحاة والانتحار بالسليقة قصيدة نظمها عمَّار الكلبيُّ يهاجم فيها النحاة، والتي يقول في فاتحتها[xix].

ماذا لقينا من المستعربين ومِنْ قياس نحوهم هذا الذي ابتدعوا؟

فعمَّار الكلبي في هذا الأبيات يبدي سخطه من المستعربين الذين ليسوا فصحاء وصرحاء في العرب، وفي الوقت نفسه يبدي عمار الكلبي تذمُّره من ضيقه بقياس النحو الذي كان صناعة النحويين، فالنحو ما ينجرُّ عنه من إعراب وتعليل وجدل في العامل أمر جديد على ثقافة العرب في عصرهم ذلك[xx].

وهكذا شرعت "السليقة" تتناقص وتتلاشى أو قل أخذت السليقة تتجزأ إلى أن تتحول إلى لغة تكتسب بالتعلم والمران، فتؤول إلى اللغة الرسمية أو اللغة الأدبية التي يمكن أن يتفق عليها أبناء الأمة المتواصلة بها[xxi].

## الخاتمة

- السليقة رباط متين بين اللغة واللهجات.
- لم تكن العربية الفصحى هي السليقة الوحيدة لكل العرب التي نزل بها القرآن.
- لقد تأثرت السليقة بالثقافات الأخرى.
- لقد تأثر الخطاب تأثراً كبيراً بالسليقة.
- لقد كانت السليقة الغربية هي المهيمنة وهي الحامية من الخطأ.

## الهوامش

[i]الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جني (ت392هـ) ، عالم الكتب، بيروت، المحقق: محمد علي النجار: 114/2.

[ii]النهاية في غريب الأثر: 391/2.

[iii]شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 4/262.

[iv]لسان العرب، لابن منظور، مادة سلق.

[v]الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، عالم الكتب، بيروت، المحقق: محمد علي النجار: 118/2.

[vi]لسان العرب، مادة: سلق.

[vii]

[viii]فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ريمون طحان، ودنيز بيطار طحان، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص17.

[ix]أصول علم العربية في المدينة، د. عبدالرزاق الصاعدي، المكتبة العربية الشاملة بتصرف.

[x]الأسلوبية وتحليل الخطاب ، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردي، نور الدين السد، ج2، دار هومة، الجزائر، 2012، ص19.

[xi]الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي، عبدالرحمن مجازي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص20.

[xii]دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2005، ص155.

[xiii]الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، نور الدين السد، ص11.

[xiv]الخطيئة والتكفير من البنوية إلى التشريحية نظرية وتطبيق، عبدالله الغذامي، ص31.

[xv]بنية الخطاب الشعري "دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، عبدالملك مرتاض، ص34.

[xvi]النظرية الشعرية بناء لغة الشعر اللغة العليا، جون كوين، ترجمة: أحمد درويش، ج2، دار غريب، القاهرة، 2000، ص259.

[xvii]قضايا الشعر الحديث، جهاد فاضل، دار الشروق، بيوت، لبنان، ط1، 1984، ص18.

[xviii]طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي: 1/17.

[xix]نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري كمال الدين أبوالبركات عبدالرحمن ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، د.ط، القاهرة، المكتبة التجارية، 1961م، ص26.

[xx]الخصائص: 239، 1/240.

[xxi]نزهة الألباء ف[xxi]الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جني (ت392هـ) ، عالم الكتب، بيروت، المحقق: محمد علي النجار: 114/2.

[xxi]النهاية في غريب الأثر: 391/2.

[xxi]شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 4/262.

[xxi]لسان العرب، لابن منظور، مادة سلق.

[xxi]الخصائص، أبوالفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، عالم الكتب، بيروت، المحقق: محمد علي النجار: 118/2.

[xxi]لسان العرب، مادة: سلق.

[xxi]

[xxi]فنون التقعيد وعلوم الألسنية، ريمون طحان، ودنيز بيطار طحان، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، ص17.

[xxi]أصول علم العربية في المدينة، د. عبدالرزاق الصاعدي، المكتبة العربية الشاملة بتصرف.

[xxi]الأسلوبية وتحليل الخطاب ، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردي، نور الدين السد، ج2، دار هومة، الجزائر، 2012، ص19.

[xxi]الخطاب السياسي في الشعر الفاطمي، عبدالرحمن مجازي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص20.

[xxi]دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2005، ص155.

[xxi]الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث، نور الدين السد، ص11.

[xxi]الخطيئة والتكفير من البنوية إلى التشريحية نظرية وتطبيق، عبدالله الغذامي، ص31.

[xxi]بنية الخطاب الشعري "دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية، عبدالملك مرتاض، ص34.

[xxi]النظرية الشعرية بناء لغة الشعر اللغة العليا، جون كوين، ترجمة: أحمد درويش، ج2، دار غريب، القاهرة، 2000، ص259.

[xxi]قضايا الشعر الحديث، جهاد فاضل، دار الشروق، بيوت، لبنان، ط1، 1984، ص18.

[xxi]طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي: 1/17.

[xxi]نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري كمال الدين أبوالبركات عبدالرحمن ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، د.ط، القاهرة، المكتبة التجارية، 1961م، ص26.

[xxi]الخصائص: 239، 1/240.

[xxi]نزهة الألباء في طبقات الأداء، ص109ي طبقات الأداء، ص109.